

## الآثار الغارقة بين المصطلح والمفهوم د. عماد خليل

### مقدمة:

في خلال الأعوام العشرة الماضية أصبح الحديث عن آثار مصر الغارقة من الموضوعات التي يتردد ذكرها كثيرا، ليس في مجال البحث الأثري أو بين المتخصصين في علم الآثار فحسب، بل وعلى المستوى الثقافي والإعلامي بوجه عام. فقد اكتسبت الآثار الغارقة في مصر شهرة واسعة منذ أن بدأت مشروعات البحث والتقيب الأثري عن بقايا فنار الإسكندرية القديم وعن الأرصفة البحرية الغارقة بميناء الإسكندرية الشرقي، وكذلك عن السفن الغارقة على ساحل البحر الأحمر، وذلك بدءا من عام ١٩٩٤. ثم ازدادت هذه الشهرة اتساعا وازداد الاهتمام العلمي والإعلامي بالآثار الغارقة على سواحل الإسكندرية مع الاكتشافات الحديثة للمواقع الغارقة بمنطقة خليج أبي قير<sup>٢</sup>.

ومن ثم فقد تم تناول العديد من الموضوعات المرتبطة بالآثار الغارقة في مصر في كثير من الندوات والمؤتمرات العلمية والثقافية وكذلك في وسائل الإعلام المختلفة. ولكن نظرا لكون هذا التخصص، على المستويين الأكاديمي والبحثي، في جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية العربية، يعد من التخصصات الجديدة التي يهتم بها عدد قليل من الباحثين العرب، لذلك فإن مفهوم الآثار الغارقة كأحد مجالات البحث الأثري، وانعكاسة ما بين أسس وبنائى علم الآثار وبين البحث الأثري تحت سطح الماء يعد من الموضوعات غير المطروقة في مكتبتنا الأثرية العربية. ومن ثم، فإن هذا البحث يهدف إلى طرح بعض المفاهيم الأساسية المرتبطة بدراسة الآثار الغارقة وبطبيعة المواقع الأثرية المغمورة بالمياه، كما يهدف إلى تناول العلاقة بين هذا المجال الجديد وبين بعض الفروع والمجالات الأخرى لعلم الآثار.

\* مدرس الآثار البحرية - كلية الآداب جامعة الإسكندرية قسم الآثار والدراسات اليونانية والرومانية

<sup>١</sup> Empereur, J. Y. *Alexandria Rediscovered*. George Braziller Publisher. New York. 1998.

Mostafa, M. H., et al. (eds.). *Underwater Archaeology and Coastal Management - Focus on Alexandria*. Paris: UNESCO Publishing. Paris. 2000.

Ward, C. *Red Sea Treasure Ship*. In G.F. Bass, (ed.). *Beneath the Seven Seas*. Thames & Hudson. London. 2005. pp. 186-191.

<sup>٢</sup> Goddio, F. et al. (eds.). *Alexandria: The Submerged Royal Quarters*. Periplus. London. 1998.

Goddio, F. & Clauss, M. *Egypt's Sunken Treasures*. Prestel Verlag. Munich. 2006.

Khalil, E. & Mustafa, M. *Underwater Archaeology in Egypt*. In C. Ruppé & J. Barstad, *International Handbook of Underwater Archaeology*. Kluwer Academic / Plenum Publisher. New York. 2002. pp 519-34.

## ما هي الآثار الغارقة؟

يجدر بي أولاً أن أشير إلي ملاحظة هامة قد تساعد في تحقيق الغرض من هذا البحث، ألا وهي أهمية إدراك الفرق بين مصطلح "الآثار" حينما يستخدم لخصصاراً بمعنى "علم الآثار"، وبين المصطلح ذاته حينما يستخدم ليشير إلي القطع أو المواقع الأثرية. فحينما نتحدث عن "الآثار المصرية" علي سبيل المثال فنحن نعني بذلك المواقع والقطع الأثرية التي ترجع إلي الحقبة الفرعونية. أما حينما نتحدث عن "علم الآثار المصرية" أو "علم مصريات"، فنحن هنا نتحدث عن أحد فروع علم الآثار الذي له منهجه وأصوله المرتبطة بطبيعة الموضوعات التي يتناولها بالبحث. وبالتالي فإننا حينما نتحدث عن "الآثار الغارقة"، فنحن نقصد بذلك التراث الثقافي المغمور بالمياه *Underwater Cultural Heritage*، أي تلك المواقع أو القطع الأثرية الواقعة تحت سطح الماء. وقد عرفت منظمة اليونسكو هذا التراث بأنه "جميع آثار الوجود الإنساني التي تتسم بطابع ثقافي أو تاريخي أو أثري والتي ظلت مغمورة بالمياه، جزئياً أو كلياً، بصورة متقطعة أو متواصلة لمدة مائة عام علي الأقل".<sup>3</sup> ومن ثم فإننا نجد أن هذا التعريف يرتبط بالدرجة الأولى بالمكان الذي يوجد به الأثر، بغض النظر عن نوعه أو تاريخه أو الإقليم الذي يوجد فيه أو الحضارة التي ينتمي إليها. أي أن المعيار في وصف الأثر بكونه أثراً غارقاً هو معيار مكاني في المقام الأول.

ومن ثم فإن وصف الآثار الغارقة لا يعتبر وصفاً علمياً للموقع أو للقطعة الأثرية فمن المتفق عليه علمياً أن المواقع أو القطع الأثرية يمكن أن تصنف أو توصف وصفاً زمنياً، كأثار ما قبل التاريخ، أو الآثار المصرية القديمة أو الآثار الإسلامية وغيرها. كما أنها يمكن أن تصنف تصنيفاً إقليمياً مثل آثار بلاد اليونان أو آثار شبه الجزيرة العربية وغيرها. وكذلك يمكن أن توصف الآثار وصفاً نوعياً، مثل العمارة والنحت والتصوير وما إلي ذلك. أما وصف الأثر بكونه أثراً غارقاً فلا يقع ضمن أي من هذه التصنيفات العلمية المعترف بها. فنحن لا نصف مثلاً الآثار التي يعثر عليها في الصحاري علي أنها آثار صحراوية، أو تلك التي يعثر عليها في الجبال بأنها آثار جبلية، ارتباطاً بمكان وجودها. ليس هذا فحسب، بل إن موقع وجود الأثر نفسه قد يتغير من فترة إلي أخرى نتيجة للعديد من العوامل الطبيعية والبشرية، الأمر الذي يجعل وصف الموقع أو تصنيفه ارتباطاً بمكان وجوده وصفاً غير علمي وغير ثابت. فنحن نجد -علي سبيل المثال- أن آثار النوبة القديمة كانت تعتبر آثاراً غارقة جزئياً قبل نقلها إلي مكانها الحالي، إلا أن تغيير مكان وجودها لم يغير من مضمونها العلمي

<sup>3</sup> اتفاقية اليونسكو بشأن حماية التراث الثقافي المغمور بالمياه. باريس ٢٠٠١. المادة ١، فقرة ١ ص. ١١.

<sup>4</sup> Bass, G. *Archaeology Underwater*. Frederick A. Praeger. New York. 1966, pp. 15-22.

والتاريخي. وبالمثل، ففي أواخر القرن التاسع عشر عُثر علي سفينتين خاصتين بالإمبراطور الروماني كاليجولا غارقتين في بحيرة نيمي إلي الجنوب من روما. ثم في أوائل القرن العشرين تم اقتطاع الجزء الموجود به السفينتان في البحيرة، ثم تم تجفيف هذا الجزء حتي أصبحت السفينتان في بيئة جافة حتي يمكن دراستهما. ومن ثم نري أن تلك المواقع السابق ذكرها، والتي كانت في الأصل مواقع غارقة قد أصبحت مواقع أرضية بسبب عوامل بشرية، إلا أن هذا لم يغير من المحتوي الأثري، ومن ثم المضمون العلمي لتلك المواقع.

من ناحية أخرى، قد تتسبب العوامل الطبيعية مثل تغير مستوى سطح البحر أو الترسيب أو النحر في تغيير طبيعة المكان الذي يوجد به الموقع الأثري. فنحن نجد -علي سبيل المثال- أن أرضفة بعض الموانئ الموجودة علي سواحل بحيرة مريوط كانت منذ بضع سنوات جافة تماما، ولكن نتيجة لارتفاع منسوب المياه في البحيرة بسبب الصرف الزراعي أصبحت تلك المواقع تغمر بالمياه بشكل كلي في فصل الشتاء، أما في فصل الصيف ونتيجة لارتفاع درجات الحرارة، فإن البحر يؤدي إلي انخفاض منسوب المياه، فتصبح تلك الأرضفة جافة مرة أخرى.<sup>٦</sup>

وهناك مثال آخر من منطقة أخرى من العالم، نجده علي السواحل الجنوبية الشرقية ل إنجلترا حيث توجد السفينة أمستردام، والتي يرجع تاريخها إلي القرن الثامن عشر الميلادي، وهي من مجموعة سفن شركة الهند الشرقية الهولندية.<sup>٧</sup> وتقع هذه السفينة في نطاق المد والجزر في بحر المانش، وبناء علي ذلك فإنه أثناء المد تكون السفينة غارقة بالكامل علي عمق يزيد علي عشرة أمتار، أما أثناء الجزر، فإن المياه تتحسر تماما عن السفينة حتى تصبح ظاهرة للعيان.

وخلاصة القول، أن تصنيف المواقع الأثرية وفقا لمكان وجودها لا يعد تصنيفا علميا، خاصة وأن المكان قد يتغير نتيجة لظروف عدة. وعلي الرغم من أن مكان وجود الموقع الأثري يُعد مؤشرا أو دليلا علي التغيرات التي طرأت علي هذا الموقع والمراحل التي مر بها، وبالتالي فهو مصدر للمعلومات حول كيفية تكون الموقع الأثري، إلا أنه في الوقت ذاته لا يؤثر في المحتوي أو المضمون العلمي أو التاريخي

<sup>5</sup> Blot, J-Y. Underwater Archaeology: Exploring the World Beneath the Sea. Thames & Hudson Ltd. London. 1996, pp. 39-41.

<sup>6</sup> Blue, L. & Ramses, S. *Lake Mareotis Research Project*. Unpublished Survey Report. University of Southampton. 2005.

El-Fakharani, F. The Kibotos of Alexandria. In S. Stucchi & M. Aravantinos (eds.) *Studi Miscellanei 28, Giornate di Studio in Onore di Achille Adriani*. Roma. 1984, pp. 23-28.

Rodziewicz, M. Mareotic Harbours. In C. Décobert (ed.) *Alexandrie Médiévale 2, Etudes Alexandrines 8*. IFAO. Cairo. 2002, pp: 1-22.

<sup>7</sup> Marsden, P. *The Wreck of the Amsterdam*. London: Hutchinson. 1985.

أو الفني للأثر.

ومن ناحية أخرى نلاحظ أن مكان وجود الموقع الأثري يعد أحد العوامل الأساسية المؤثرة في تحديد التقنية والأسلوب المتبع في التعامل مع هذا الموقع، سواء أثناء البحث والاستكشاف أو المسح والتسجيل أو التنقيب والترميم<sup>٨</sup>. فالتقنيات المستخدمة في كل مرحلة من هذه المراحل يجب أن تتلائم مع طبيعة الموقع الأثري. بمعنى أن دراسة المواقع الأثرية الغارقة تتطلب بطبيعة الحال استخدام أدوات وتقنيات تختلف عن تلك المستخدمة في أعمال المسح أو التنقيب الأثري في المواقع البرية<sup>٩</sup>. ومن هنا ظهر في مجال الدراسات الأثرية منذ الستينيات من القرن الماضي مصطلح Underwater Archaeology، والذي حل محله في السنوات الأخيرة مصطلح آخر هو Archaeology Underwater<sup>١٠</sup>. وكلا المصطلحين يقصد به ممارسة العمل الأثري تحت الماء، أي دراسة المواقع الأثرية الغارقة، باستخدام التقنيات والأساليب الخاصة التي تتماشى مع طبيعة تلك المواقع. ومن ثم، فقد يتصور البعض أن العمل الأثري تحت الماء Archaeology Underwater هو أحد فروع علم الآثار الذي يختص بدراسة الآثار الغارقة. ولكن بالرغم مما يتميز به العمل الأثري تحت الماء من خصوصية في التقنيات والأساليب، إلا أنه في واقع الأمر يتم في نفس الإطار المنهجي وتحكم نفس الأسس والقواعد العلمية التي تحكم العمل الأثري في المواقع البرية. أي أن الأسس والمبادئ العلمية التي يجب أن يتبناها ويلتزم بها المشتغلون بالعمل الأثري عند التعامل مع أي موقع من المواقع أو أي أثر من الآثار لا تختلف باختلاف البيئة أو المكان الذي يوجد به هذا الموقع. فالاختلاف بين العمل الأثري في المواقع الغارقة والعمل الأثري في المواقع الأرضية ليس بأي حال من الأحوال اختلاف علميا أو منهجيا، وإنما هو اختلاف تقني فقط<sup>١١</sup>. ومن ثم فإن مصطلح "الآثار الغارقة" لا يشير إلى فرع من فروع علم الآثار أو إلى أحد تخصصاته، وإنما هو مصطلح تقني بالدرجة الأولى، يشير إلى طبيعة تلك المواقع وإلى مجموعة الأدوات والأساليب المستخدمة في التعامل معها، وذلك وفقا لنفس المقاييس وتبعاً لنفس المنهج

<sup>8</sup> Barker, P. *Techniques of Archeological Excavation*. Routledge. London. 1993.

<sup>9</sup> Delgado, J. *Encyclopaedia of Underwater and Maritime Archaeology*: Yale University Press. 1997, pp. 436.

Green, J. *Maritime Archaeology: A Technical Handbook*. Elsevier Academic Press. San Diego: 2004.

<sup>10</sup> Bass, J. *op. cit.*

Blot, J-Y. *op. cit.*

Dean, M. et al. (eds). *Archaeology Underwater, The NAS Guide to Principles and Practice*. Nautical Archaeology Society & Archetype. London. 1992.

<sup>11</sup> Dean, M. et al. *op. cit.*, pp. 20

Green, J. *op. cit.*

المتبع في العمل الأثري في أي موقع آخر<sup>١٢</sup>، فالعمل الأثري تحت الماء يمر بجميع المراحل التي يمر بها أي مشروع أثري آخر. وقد أثبتت الكثير من مشروعات المسح والتنقيب الأثري التي تمت في عدد من المواقع الغارقة في أنحاء العالم أن العمل الأثري تحت الماء يمكن أن يتم بنفس مستوي الدقة وبنفس المنهجية التي يتم بها العمل في أي من المواقع علي الأرض<sup>١٣</sup>.

#### الآثار الغارقة والآثار البحرية

علي مدي الخمسين عام الماضية والتي ظهرت وتطورت فيها أساليب وتقنيات البحث والعمل الأثري في المواقع المغمورة، ارتبط مصطلح "الآثار الغارقة"، بمفهوميه المكاني والتقني، ارتباطا وثيقا بمصطلح آخر يحمل مدلولاً علمياً خالصاً ألا وهو مصطلح "الآثار البحرية" Maritime Archaeology<sup>١٤</sup>. فوصف البقايا الأثرية بأنها بحرية هو في واقع الأمر وصف نوعي، أي أن تلك البقايا الأثرية، - سواء كانت موقعا أثريا أو قطعا أثرية- هي نتاج لعلاقة الإنسان علي مر العصور بالمسطحات والمجاري المائية المختلفة<sup>١٥</sup>.

وهكذا ظهر علم الآثار البحرية كأحد فروع أو مجالات علم الآثار، حيث يختص بدراسة كل ما يتعلق بتلك البقايا الأثرية ذات الطبيعة البحرية. هذا وتتوسع صور الآثار البحرية تنوعا كبيرا لتشمل القوارب والسفن وكل ما يطبق بها من تصميمات وتجهيزات وبناء واستخدام وملاحة. وكذلك المنشآت البحرية والساحلية المختلفة كالمراسي والموانئ وترسانات السفن<sup>١٦</sup>. ويمتد أيضا البحث في مجال الآثار البحرية ليشمل كل ما يمكن أن يكون مصدرا للمعلومات حول صناعة واستخدام السفن، كدراسة الأدوات والمواد والتقنيات التي كانت تستخدم في تلك الصناعة في العصور

<sup>12</sup> Gibbins, D. Maritime Archaeology. In I. Shaw & R. Jameson (eds.) *A Dictionary of Archaeology*. Blackwell Publishing, Oxford. 2002. pp. 380-2.

<sup>13</sup> Bass, G. (ed.). *Beneath the Seven Seas*. Thames & Hudson. London. 2005.

Ruppe, C. & Barstad, J. *International Handbook of Underwater Archaeology*. Plenum Publishers. New York. 2002.

<sup>14</sup> Babits, L. E. & Tilburg, H. V. (eds.) *Maritime Archaeology: A Reader of Substantive and Theoretical Contributions*. Kluwer Academic / Plenum Publishers. New York. 1998.

Cederlund, C. Marine archaeology in society and science. *The International Journal of Nautical Archaeology*. 1995. 24.1. pp. 9-13.

Muckleroy, K. *Maritime Archaeology*. Cambridge University Press. Cambridge. 1978.

Muckleroy, K. *Archaeology Underwater: An Atlas of the World's Submerged Sites*. McGraw-Hill. New York. 1980.

<sup>15</sup> Muckleroy, K. 1978. pp. 22.

<sup>16</sup> McGrail, S. *Aspects of Maritime Archaeology and Ethnology*. Greenwich. London. 1984.

McGrail, S. *Studies in Maritime Archaeology*. British Archaeological Reports 256.

Archaeopress. Oxford. 1997. pp. 20.

Gibbins, D. *op. cit.*

المختلفة، وكذلك دراسة النصوص والكتابات التي تناولت الملاحة والأنشطة البحرية علي مر العصور<sup>١٧</sup>. بل دراسة الموضوعات البحرية المصورة علي أشكال الفن المختلفة، خاصة تلك المتعلقة بالسفن والموانئ، فإنها تدخل أيضا في نطاق علم الآثار البحرية. هذا ويرى بعض علماء الآثار البحرية أن مجال الاهتمام بهذا الفرع من فروع علم الآثار يمتد ليشمل دراسة المجتمعات الساحلية في العصور المختلفة وما يتعلق بها من ثقافات وعادات وتراث مرتبط بالأنشطة البحرية<sup>١٨</sup>.

بل إن بعض الباحثين يرون أن أحد التخصصات الهامة في هذا المجال هو ما يعرف بالإثنوجرافيا البحرية *Maritime Ethnography* وهو دراسة التراث البحري الذي لازال يمارس في الكثير من المجتمعات الحالية بصورة قريبة جدا من تلك التي كان يمارس بها في العصور القديمة<sup>١٩</sup>، حيث تساهم دراسة التراث البحري في أحيان كثيرة في تفسير العديد من البقايا الأثرية، بل والنصوص التاريخية ذات المضمون البحري. إضافة إلى ذلك وجود اتجاه عالمي نحو اعتبار الموضوعات الخاصة بإدارة وحماية النطاق الساحلي *Coastal Zone Management* بهدف الحفاظ علي التراث المادي من الموضوعات المتعلقة والمرتبطة بعلم الآثار البحرية<sup>٢٠</sup>. من ناحية أخرى، ومن أجل أن يتحقق لدارسي الآثار البحرية الهدف من تلك الدراسة، ألا وهو محاولة فهم أكثر وضوحا لطبيعة ولتطور العلاقة بين الإنسان والبيئة المائية في مختلف العصور والمناطق، فإن علماء الآثار البحرية كثيرا ما يستعينون في دراساتهم بعدد من التخصصات المساعدة مثل هندسة السفن وعلم النبات وعلم الآثار التجريبي وتاريخ الفن وعلم الإنسان وأيضا علوم اللغة وغيرها<sup>٢١</sup>.

وبطبيعة الحال فإن هناك العديد من الموضوعات التي يمكن أن تمثل نطاق بحث واهتمام مشترك، ما بين علم الآثار البحرية، ومجالات أخرى لعلم الآثار، ومثال ذلك دراسة الاقتصاد والتجارة البحرية في مختلف العصور، والبضائع المختلفة التي كان

<sup>17</sup> Steffy, J. R. *Wooden Ship Building and the Interpretation of Shipwrecks*. College Texas A&M University Press. Texas. 1994.

Delgado, J. *op. cit.* pp. 259.

<sup>18</sup> Gould, R. (ed.). *Shipwreck Anthropology*. University of New Mexico Press. Albuquerque: New Mexico. 1983.

<sup>19</sup> Hasslöf, O. *Maritime Ethnology and its Associated Disciplines*. in - Hasslöf, O. et al. (eds.). *Ships & Shipyards - Sailors and Fishermen*. Rosenkilde & Bagger Copenhagen. 1972. pp. 9-19.

<sup>20</sup> Grenier, R., Nutley, D. & Cochran, I. *Underwater Cultural Heritage at Risk: Managing Natural and Human Impacts*. International Council on Monuments and Sites: Paris. 2006. Morcos, S. et al. (eds.). *Towards integrated management of Alexandria's coastal heritage*. Coastal region and small island papers 14. UNESCO. Paris. 2003.

<sup>21</sup> McGrail, S. 1984. pp. 13.

يتم تداولها بواسطة السفن والقوارب، خاصة وأن النقل البحري بصوره المختلفة كان هو وسيلة النقل الرئيسية لدى العديد من الحضارات القديمة<sup>٢٢</sup>. ونظرا لتلك الأهمية التي كانت تمثلها السفن والقوارب بالنسبة لحياة الكثير من الشعوب، فقد ظهر فرع من فروع علم الآثار البحرية يختص تحديدا بدراسة الموضوعات المتعلقة بتقنيات وأساليب الملاحة وبناء القوارب والسفن بأنواعها في العصور المختلفة، وتطور هذه التقنيات واختلافها من منطقة إلي أخرى ومن فترة زمنية إلي أخرى، وهو التخصص الذي يعرف باسم Nautical Archaeology أو "علم الآثار الملاحية"<sup>٢٣</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن الارتباط القائم بين علم الآثار البحرية وبين العمل الأثري تحت الماء يعود بالدرجة الأولى إلي أن الكثير من المواقع ذات الطبيعة البحرية هي في الوقت ذاته مواقع غارقة جزئيا أو كليا<sup>٢٤</sup>. ومع ذلك فإننا نجد أن العديد من المواقع الأثرية البحرية توجد في مناطق جافة أو بعيدة كليا عن البيئة الساحلية. فالسفن مثلا أو القوارب التي يعثر عليها مدفونة في بيئة صحراوية، مثل سفينة خوفو الجنائزية، وقوارب دهشور وأبيدوس<sup>٢٥</sup>، فإنها جميعا تدخل في نطاق الآثار البحرية. مثل هذه السفن والقوارب -حتى وإن كانت ذات طبيعة جنائزية أو دينية أو طقسية- إلا أنها قد تم بناؤها بنفس الأسلوب والتقنية ووفقا لنفس الأسس التي سبعت في بناء السفن عامة في تلك العصور، ومن ثم فإنها تعتبر آثارا بحرية وملاحية وإن لم تكن غارقة. كما يمكننا أن نري صورا أخرى للآثار البحرية، غير الغارقة، في عدد من الموانئ، مثل مينائي ميوس هورموس (القصر القديم حاليا)، وبرنيس، اللذان كانا من أهم الموانئ المصرية علي ساحل البحر الأحمر خلال العصر الروماني. وقد أصحبا الآن علي بعد مئات الأمتار من ساحل البحر نتيجة لعمليات الترسيب التي حدثت علي مدي القرون السابقة. فضلا عن ذلك، فقد غطتهما تماما الرواسب والرمال التي كانت تحملها مياه الأمطار المندفعة خلال الوديان والسهول في الصحراء الشرقية<sup>٢٦</sup>.

<sup>22</sup> Casson, L. *Sips and Seafaring in Ancient Times*. University of Texas Press. Texas. 1996.

<sup>23</sup> Delgado, J. *op. cit.* pp. 260.

Gibbins, D. *op. cit.* pp. 380.

McGrail, S. 1984. pp.12.

<sup>24</sup> Muckleroy, K. 1980.

<sup>25</sup> Ward, C. *Sacred and secular: ancient Egyptian ships and boats*. Archaeological Institute of America Monographs, No. 5. University of Pennsylvania Museum. Philadelphia. 2000.

<sup>26</sup> Blue, L. Myos Hormos / Quseir al-Qadim: A Roman and Islamic Port on the Red Sea Coast of Egypt - A Maritime Perspective. *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* 32. 2002. pp.139-150.

وكما أن هناك آثارا بحرية غير غارقة، فإن هناك أيضا آثارا مغمورة بالمياه سواء كليا أو جزئيا ولكنها ليست ذات طبيعة بحرية. فعشرات التماثيل والأعمدة والأجزاء المعمارية والعملات وغيرها من الآثار التي عثر عليها غارقة علي سواحل الإسكندرية -سواء في الميناء الشرقي أو في خليج أبي قير<sup>٢٧</sup> -هي بلا شك ليست آثارا بحرية. ومن ثم، فعلي الرغم من أن إجراء أعمال المسح أو التنقيب عن تلك الآثار الغارقة يتطلب استخدام التقنيات الخاصة بالعمل الأثري تحت الماء، إلا أن الدراسة العلمية لتلك الآثار تؤول إلي الأثريين المختصين بدراسة أنواع الفن المختلفة كالنحت والعمارة وغيرها، وليس للمختصين في علم الآثار البحرية.

وكما ذكرنا من قبل، فإن هناك العديد من المواقع الأثرية التي توصف بأنها مواقع بحرية وغارقة في الوقت ذاته، مثال ذلك الموانئ الغارقة في الإسكندرية وصور وصيدا وقيصرية وغيرها، وكذلك مئات السفن الغارقة من مختلف العصور، والتي أصبحت أكثر الموضوعات انتشارا في مجال دراسة الآثار الغارقة في مختلف أنحاء العالم<sup>٢٨</sup>. فتلك جميعها آثار بحرية غارقة، يقوم المتخصصون في علم الآثار البحرية بدراستها باستخدام تقنيات العمل الأثري تحت الماء، ولكن وفقا لنفس المنهج ولنفس الأسس العلمية المتبعة في دراسة المواقع الأثرية بوجه عام.

من الأمثلة السابقة يتضح لنا أن علاقة الآثار البحرية بالآثار العارفة ليست عرصة متلازمة، أي أننا نخلص إلي نتيجة مؤداها أنه ليست كل الآثار الغارقة بالضرورة آثارا بحرية وليست كل الآثار البحرية بالضرورة غارقة. إلا أن هناك قدر كبير من التداخل بين المجالين يتمثل في الآثار الغارقة التي تكون في الوقت ذاته ذات طبيعة بحرية (شكل ١).

ولعل الفضل الأكبر في إتاحة الفرصة لممارسة العمل الأثري تحت الماء يرجع إلي اختراع أجهزة الغوص الذاتي بالهواء المضغوط والمعروفة اختصارا باسم SCUBA، ذلك في الأربعينات من القرن الماضي. فانتشار تلك الأجهزة وسهولة التدريب علي

Sidebotham, S. & Wendrich, W. (eds.) *Berenike 1998: Preliminary Report of the 1998 Excavations at Berenike (Egyptian Red Sea Coast) and the Survey of the Eastern Desert*. Leiden University Research School CNWS. Leiden. 2000.

<sup>27</sup> Khalil, E. & Mustafa, M. *op. cit.* pp. 522-8

Goddio, F. & Clauss, M. *op. cit.*

<sup>28</sup> Blackman, D. J. Ancient Harbours in the Mediterranean II. *International Journal of Nautical Archaeology*. 1982. 11.3. pp.185-211.

Flemming, N. Cities under the Mediterranean. In K. Muckelroy (ed.) *Archaeology Underwater: An Atlas of the World's Submerged Sites*. McGraw-Hill Book Company. London. 1980. pp. 162-177.

Parker, A. J. *Ancient Shipwrecks of the Mediterranean and the Roman Provinces*. British Archaeological Reports International Series 580. Tempus Reparatum. Oxford. 1992



استخدامها كانا من أهم العوامل التي ساعدت علي ظهور وتطور تقنيات ووسائل دراسة الآثار الغارقة، حتي أصبح للعمل الأثري تحت الماء أساليبه المعروفة والتي يستخدمها المشتغلون بهذا المجال.

لقد ساهم العمل الأثري تحت الماء إسهاما كبيرا في إثراء معلوماتنا عن العديد من أوجه الحياة في المجتمعات القديمة. فمن خلال البحث الأثري تحت الماء أمكن دراسة العديد من المواقع والبقايا الأثرية الهامة والتي أصبحت مصدرا أساسيا وهاما للمعرفة الأثرية في الكثير من الموضوعات، خاصة تلك المتعلقة بالنقل والتجارة والمعارك البحرية والتطور التكنولوجي في العالم القديم<sup>٢٩</sup>.

### خصائص المواقع الأثرية الغارقة

من المعروف أن قيمة أي أثر من الآثار تقاس بمقدار المعلومات التي يمكننا أن نستقيها منه عن حياة الأفراد والمجتمعات التي صنعت هذا الأثر واستخدمته. لذا، فمع اتساع نطاق البحث والدراسة في العديد من المواقع الأثرية الغارقة المنتشرة في مناطق متفرقة من العالم، والتي ترجع إلي حقبة زمنية مختلفة، سرعان ما اكتشف الأثريون المشتغلون في هذا المجال أن للمواقع الغارقة بوجه عام والسفن الغارقة علي وجه الخصوص خصائص تجعلها تتميز -كمصدر للمعرفة الأثرية- عن العديد من المواقع الأرضية التقليدية. ولعل أولى هذه الميزات يرتبط بقدرة البيئة المائية علي الحفاظ علي القطع الأثرية في حالة جيدة جدا، خاصة تلك القطع المصنوعة من مواد عضوية كأجسام السفن المصنوعة من الأخشاب، أو القطع المصنوعة من العظام وبقايا النباتات وغيرها (شكل ٢). فالبيئة المائية تبقي القطع الأثرية بمعزل عن الأكسوجين، والذي يتسبب في حالة وجوده في تأكسد المواد وتاكلها، مثلما يحدث للمواد العضوية في كثير من المواقع الأرضية. أما تحت الماء، وخاصة في حالة وجود القطع الأثرية مدفونة تحت قيعان البحار أو الأنهار، فإن تلك البيئة تحفظ القطع في حالة جيدة، بحيث تصبح بعد انتشالها وترميمها ودراستها مصدرا ثريا للمعلومات عن صانعيها ومستخدميها<sup>٣٠</sup>.

وهناك ميزة أخرى - ليست أقل أهمية - تتميز بها المواقع الغارقة عن الكثير من المواقع البرية وهي تلك التي تتعلق بعملية تكون الموقع الأثري ذاته، والتي تؤثر في قيمته الأثرية ومن ثم العلمية. فمعظم المواقع الغارقة تتكون بشكل عفوي وغير مقصود، الأمر الذي يجعلها أكثر وأصدق تعبيراً عن الحياة العادية للأفراد والمجتمعات. فالسفن عادة ما تتعرض للغرق بشكل مفاجئ وسريع إما نتيجة لعوامل

<sup>29</sup> Bass, G. (ed.). A History of Seafaring based on Underwater Archaeology. Thames & Hudson. London. 1972.

<sup>30</sup> Robinson, W. First Aid for Underwater Finds. Archetype. London. 1998. pp. 25-51.

جوية غير ملائمة أو بسبب تعرضها للإصابة إما أثناء معركة حربية أو من جراء اصطدامها بالصخور أو ما إلي ذلك. وكذلك المواقع والمنشآت الساحلية كالموانئ مثلا، كثيرا ما تتعرض للغرق بفعل الزلازل التي تتسبب في هبوط السواحل بشكل مفاجئ. لذا فإن تلك المواقع وما تحتويه من قطع أثرية تعكس بصورة أكثر واقعية بعض أوجه الحياة التي كان يعيشها المجتمع لحظة تعرض المنطقة أو الموقع للغرق. فنحن نجد أن المواقع التي تمثل حطام السفن الغارقة، عادة ما تحتوي علي بقايا لما كانت تحمله السفن من بضائع ومنقولات. فضلا عن ذلك فإنها تحتوي أيضا علي مجموعات متنوعة من القطع الأثرية التي تمثل الأدوات والأمتعة الشخصية لركاب تلك السفن وبحارتها. وعلي ذلك، فعندما تكتشف هذه المواقع ويتم دراسة تلك المجموعات المتنوعة من القطع الأثرية فإنها تساهم في رسم صورة دقيقة إلي حد كبير للأنشطة التي كانت تستخدم فيها السفينة بالإضافة إلي للحياة اليومية لبحارتها وركابها إبان تعرضها للغرق، الأمر الذي يمثل مصدرا هاما للمعلومات حول المجتمع الذي صنع واستخدم تلك السفينة في تلك الفترة<sup>٣١</sup>.

وميزة ثالثة تتميز بها المواقع الغارقة، وبخاصة السفن الغارقة، عن الكثير من المواقع الأخرى هي التوافق الزمني بين الموقع ومحتوياته. فالسفينة ذاتها، بالإضافة إلي كل ما تحمله من أدوات وأمتعة وبضائع ومتعلقات شخصية لركابها وغير ذلك، ترجع جميعها إلي فترة زمنية واحدة ومحددة، الأمر الذي ينتج عنه في النهاية موقع أثري ذو خصائص مميزة جدا. فعلي سبيل المثال، إذا تعرضت سفينة للغرق في السنوات الأولى من القرن الأول الميلادي فإن أغلب، إن لم يكن كل ما تحمله هذه السفينة علي متنها يعود إلي نفس الفترة. ومن ثم فعند غرق السفينة وتحولها إلي موقع أثري تكون عناصر هذا الموقع مرتبطة ومتوافقة زمنيا، الأمر الذي يتيح للأثريين فرصة فريدة لدراسة مجموعات كبيرة ومتنوعة من القطع الأثرية المختلفة المواد والاستخدام والتي تعود كلها إلي نفس الفترة الزمنية<sup>٣٢</sup>.

وفي المقابل نجد أن الكثير من المواقع الأثرية الأرضية تتكون بسبب ترك سكانها أو مستخدميها لها، ومن ثم تصبح تلك المواقع غير مأهولة، أو يعاد استخدامها مرة أخرى من قبل سكان جدد، ثم تترك من جديد، ويعاد استخدامها مرة أخرى وهكذا. لذا فإن كثيرا من القطع الأثرية التي يعثر عليها أثناء إجراء الحفائر في المواقع الأرضية غالبا ما تكون نتيجة استخدام متكرر وممتد للمواقع علي مدي فترات زمنية طويلة قد تصل أحيانا إلي آلاف السنين، تتعرض خلالها المواقع للعديد من التغيرات بسبب العوامل البشرية والطبيعية. وفي أحيان كثيرة يكون قد تم التخلص من القطع بشكل

<sup>31</sup> Muckelroy, K. 1978. pp. 215.

Gibbins, D. *op. cit.* pp. 380.

<sup>32</sup> Green, G. *op. cit.* pp. 4-5.

مقصود من قبل مستخدميها الأوائل، فإما أن تتعرض للدفن وتبقي مدفونة حتى يكشف عنها علماء الآثار، أو تتراكم علي مدي زمني طويل في صورة تلال أثرية مثل التلال التي يعثر عليها في كثير من المواقع.

لعل أحد الاستثناءات البارزة بالنسبة للمواقع الأرضية التي تكون فيها الآثار متوافقة زمنيا يكمن في حالة المقابر التي يتم الكشف عنها وهي تحتوي علي مجموعات من القطع الأثرية التي تعود كلها إلي تاريخ المقبرة ذاتها، وفي هذه الحالة تكون القطع قد تم اختيارها بشكل متعمد لتوضع في المقبرة، ومن ثم فهي وإن كانت متوافقة زمنيا، إلا أنها لا ينطبق عليها فكرة غياب الدافع أو العفوية التي تميز المواقع الغارقة.

ولعل أحد أبرز الأمثلة علي تلك الخصائص المميزة للسفن الغارقة نجدها في أقدم السفن التي عثر عليها تحت الماء حتى الآن وهي تلك السفينة الغارقة في منطقة Uluburun في جنوب تركيا، وترجع إلي أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد، والتي غرقت وهي تحمل علي متنها ما يزيد علي عشرة أطنان من البضائع والمنتجات المختلفة. ولقد بدأ التنقيب عن تلك السفينة عام ١٩٨٤ واستمر قرابة العشر سنوات، حيث أسفرت أعمال الحفائر خلال تلك الفترة عن مئات القطع الأثرية القادمة من مناطق متفرقة من شرق البحر الأبيض المتوسط مثل قبرص والساحل الفينيقي وآسيا الصغرى وبلاد اليونان، والتي تنوعت ما بين مواد خام معدة للتصنيع مثل كتل الزجاج وسدائل البرونز وقطع العاج والأبوس وكذلك قطع مصنعة مثل الحلبي والأواني الفخارية والأسلحة وأدوات النجارة التي كانت تستخدم في إصلاح السفن، وغيرها بالإضافة إلي بعض أجزاء من جسم السفينة ذاته، وعدد من المرساوات الحجرية. وبالرغم من أنه قد عثر من قبل علي نماذج من هذه القطع والمواد في مناطق متفرقة من البحر المتوسط، إلا أن العثور عليها مجتمعة في سفينة واحدة يمثل دليلا علي ارتباطها زمنيا رغم اختلاف مصدرها. ومن ثم فإن دراسة مثل هذا الموقع يعتبر بمثابة دراسة مقارنة لكل هذه الصناعات والمنتجات، الأمر الذي يعد مصدرا غاية في الثراء للمعلومات حول الصناعة والتجارة في عصر البرونز في شرق البحر المتوسط<sup>33</sup>.

مثال آخر علي قيمة الآثار البحرية الغارقة كمصدر للمعرفة الأثرية، نجده في السفينة الحربية الإنجليزية الشهيرة Mary Rose والتي غرقت أمام سواحل مدينة Portsmouth في جنوب إنجلترا عام ١٥٤٥م وعلي متنها ٦٠٠ شخص من البحارة

<sup>33</sup> Pulak, C. *The Uluburun Shipwreck: An Overview*. International Journal of Nautical Archaeology 27. 1998. pp. 188-224.

Pulak, C. *The Late Bronze Age Shipwreck at Uluburun, Turkey*. In G.F. Bass, (ed.) *Beneath the Seven Seas*. Thames & Hudson. London. 2005, pp. 186-191.

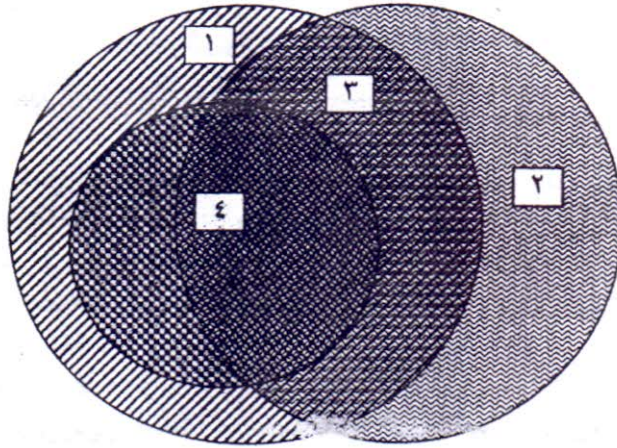
والجنود<sup>٣٤</sup>. فقد كشف التنقيب عن هذه السفينة عن آلاف القطع الأثرية التي كانت تستخدم علي متنها مثل أنواع مختلفة من الأسلحة، والأدوات الملاحية، والمتعلقات الشخصية الخاصة بالجنود والبحارة، وأدوات لحرف مختلفة كانت تمارس علي متن السفينة كالنجارة والحدادة وأدوات جراحية وطبية وأدوات موسيقية وترفيهية، وحتى بقايا الأطعمة التي كان يتم تناولها علي السفينة. هذا الكم وهذا التنوع الكبير في البقايا الأثرية المتوافقة زمنيا ومكانيا هو بمثابة توثيق مادي لما كانت عليه أوجه الحياة اليومية والأنشطة المختلفة للبحارة والجنود علي متن السفن الحربية في بريطانيا في منتصف القرن السادس عشر الميلادي.

### الخلاصة

بناء علي ما سبق، يتضح لنا أن علم الآثار البحرية لا يتعلق بالضرورة بدراسة المواقع الغارقة أو تلك الموجودة في بيئة بحرية وإنما يرتبط بالدرجة الأولى بدراسة المواقع المرتبطة بالنشاط البحري بصوره المختلفة بغض النظر عن مكان وجودها الفعلي، والذي لا يغير بوجه عام من طبيعة المواقع أو من محتواها الأثري. في الوقت ذاته نجد أن المواقع الأثرية الغارقة، وخاصة السفن، تتميز بعدد من الخصائص التي تجعلها مصدرا ثريا ومميزا للمعرفة الأثرية.

لقد لعب النشاط البحري دورا أساسيا في حياة الكثير من الشعوب علي مر التاريخ. ومن ثم فإن دراسة هذا النشاط بصوره المختلفة يساهم بشكل فعال في فهم تاريخ تلك الشعوب، ويعد علم الآثار البحرية أحد الأدوات التي يمكننا من خلالها إلقاء مزيد من الضوء علي أوجه مختلفة من حياة الشعوب وتطور الحضارات. ومن ثم، فعلي جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية العربية المعنية بالدراسات الأثرية أن تسعى نحو إدخال هذا التخصص الهام ضمن برامجها الدراسية والبحثية حتي يكون لدينا جيل جديد من الأثريين والباحثين المعنيين بدراسة آثارنا البحرية وتوثيقها والحفاظ عليها من الاندثار.

<sup>34</sup> Marsden, P. *Sealed by Time: The Loss and Recovery of the Mary Rose*. The Mary Rose Trust. Portsmouth. 2003.

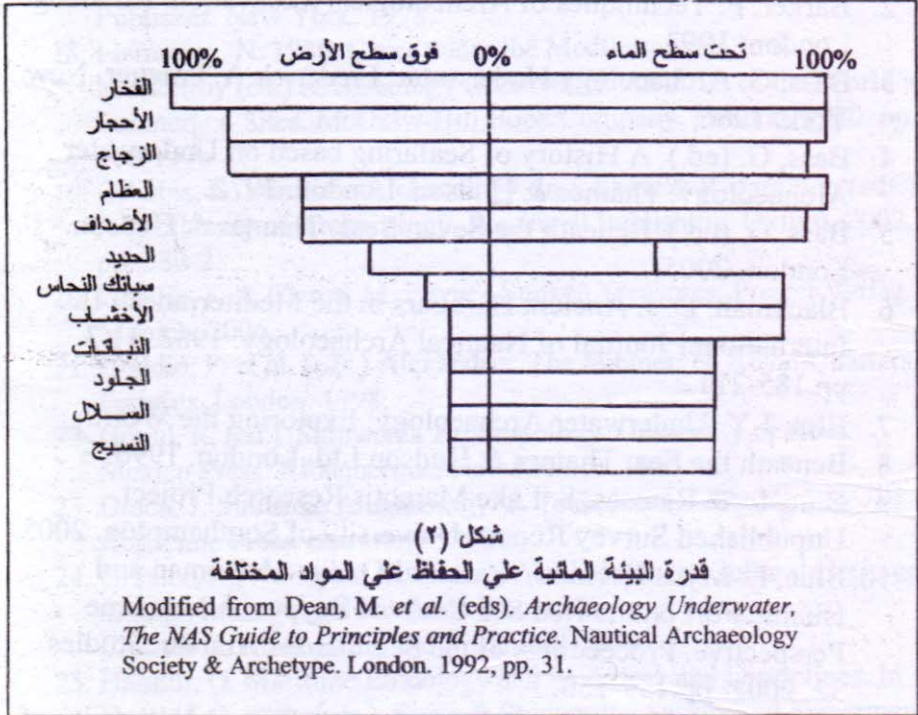


(شكل ١)

العلاقة ما بين المواقع الأثرية البحرية والملاحية والغارقة

- ١- المواقع الأثرية ذات الطبيعة البحرية (الأثار البحرية).
- ٢- المواقع الأثرية الغارقة (الأثار الغارقة).
- ٣- الأثار البحرية الغارقة.
- ٤- الأثار الملاحية.

نلاحظ أن وجود نطاق مشترك بين الأثار البحرية والغارقة، ألا وهو الأثار ذات الطبيعة البحرية الموجودة بالفعل تحت الماء، مثل السفن الغارقة. كما نلاحظ أن الأثار الملاحية تقع بالكامل داخل نطاق الأثار البحرية، إلا أنها ليست بالضرورة أن تكون غارقة، وذلك مثل السفن التي يعثر عليها في مواقع برية، فهي أثار بحرية وملاحية ولكنها ليست غارقة.



### قائمة المراجع

- اتفاقية اليونسكو بشأن حماية التراث الثقافي المغمور بالمياه. باريس ٢٠٠١.
1. Babits, L. E. & Tilburg, H. V. (eds.) *Maritime Archaeology: A Reader of Substantive and Theoretical Contributions*. Kluwer Academic / Plenum Publishers. New York. 1998.
  2. Barker, P. *Techniques of Archeological Excavation*. Routledge. London. 1993.
  3. Bass, G. *Archaeology Underwater*. Frederick A. Praeger. New York. 1966.
  4. Bass, G. (ed.). *A History of Seafaring based on Underwater Archaeology*. Thames & Hudson. London. 1972.
  5. Bass, G. (ed.). *Beneath the Seven Seas*. Thames & Hudson. London. 2005.
  6. Blackman, D. J. *Ancient Harbours in the Mediterranean II*. *International Journal of Nautical Archaeology*. 1982. 11.3. pp.185-211.
  7. Blot, J-Y. *Underwater Archaeology: Exploring the World*
  8. *Beneath the Sea*. Thames & Hudson Ltd. London. 1996.
  9. Blue, L. & Ramses, S. *Lake Mareotis Research Project*. Unpublished Survey Report. University of Southampton. 2005.
  10. Blue, L. *Myos Hormos / Quseir al-Qadim: A Roman and Islamic Port on the Red Sea Coast of Egypt – A Maritime Perspective*. *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* 32. 2002. pp.139-150.
  11. Casson, L. *Sips and Seafaring in Ancient Times*. University of Texas Press. Texas .1996.
  - 12.
  13. Cederlund, C. *Marine archaeology in society and science*. *The International Journal of Nautical Archaeology*. 1995. 24.1. pp. 9-13.
  14. Dean, M. et al. (eds). *Archaeology Underwater, The NAS Guide to Principles and Practice*. Nautical Archaeology Society & Archetype. London. 1992.
  15. Delgado, J. *Encyclopaedia of Underwater and Maritime Archaeology*: Yale University Press. 1997.

16. El-Fakharani, F. The Kibotos of Alexandria. In S. Stucchi & M. Aravantinos (eds.) *Studi Miscellanei* 28, *Giornate di Studio in Onore di Achille Adriani*. Roma. 1984, pp. 23-28.
17. Empereur, J. Y. *Alexandria Rediscovered*. George Braziller Publisher. New York. 1998.
18. Flemming, N. 1980. Cities under the Mediterranean. In K. Muckelroy (ed.) *Archaeology Underwater: An Atlas of the World's Submerged Sites*. McGraw-Hill Book Company. London. 1980. pp. 162-177.
19. Gibbins, D. *Maritime Archaeology*. In I. Shaw & R. Jameson (eds.) *A Dictionary of Archaeology*. Blackwell Publishing. Oxford. 2002. pp. 380-2.
20. Goddio, F. & Clauss, M. *Egypt's Sunken Treasures*. Prestel Verlag. Munich. 2006.
21. Goddio, F. et al. (eds.) *Alexandria: The Submerged Royal Quarters*. Periplus. London. 1998.
22. Gould, R. (ed.). *Shipwreck Anthropology*. University of New Mexico Press. Albuquerque: New Mexico. 1983.
23. Green, J. *Maritime Archaeology: A Technical Handbook*. Elsevier Academic Press. San Diego: 2004.
24. Grenier, R., Nutley, D. & Cochran, I. *Underwater Cultural Heritage at Risk: Managing Natural and Human Impacts*. International Council on Monuments and Sites: Paris. 2006.
25. Hasslöf, O. *Maritime Ethnology and its Associated Disciplines*. In Hasslöf, O. et al. (eds.). *Ships & Shipyards - Sailors and Fishermen*. Rosenkilde & Bagger Copenhagen. 1972. pp. 9-19.
26. Khalil, E. & Mustafa, M. *Underwater Archaeology in Egypt*. In C. Ruppé & J. Barstad, *International Handbook of Underwater Archaeology*. Kluwer Academic / Plenum Publisher. New York. 2002, pp. 519-34.
27. Marsden, P. *Sealed by Time: The Loss and Recovery of the Mary Rose*. The Mary Rose Trust. Portsmouth. 2003.
28. McGrail, S. *Aspects of Maritime Archaeology and Ethnology*. Greenwich. London. 1984.
29. McGrail, S. *Studies in Maritime Archaeology*. British Archaeological Reports 256. Archaeopress. Oxford. 1997.



30. Morcos, S. et al. (eds.). Towards integrated management of Alexandria's coastal heritage. Coastal region and small island papers 14. UNESCO. Paris. 2003.
31. Mostafa, M. H., et al. (eds.). Underwater Archaeology and Coastal Management – Focus on Alexandria. Paris: UNESCO Publishing. Paris. 2000.
32. Muckleroy, K. Archaeology Underwater: An Atlas of the World's Submerged Sites. McGraw-Hill. New York. 1980.
33. Muckleroy, K. Maritime Archaeology. Cambridge University Press. Cambridge. 1978.
34. Parker, A. J. Ancient Shipwrecks of the Mediterranean and the Roman Provinces. British Archaeological Reports International Series 580. Tempus Reparatum. Oxford. 1992.
35. Pulak, C. The Late Bronze Age Shipwreck at Uluburun, Turkey. In G.F. Bass, (ed.) Beneath the Seven Seas. Thames & Hudson. London. 2005, pp. 186-191.
36. Pulak, C. The Uluburun Shipwreck: An Overview. International Journal of Nautical Archaeology 27. 1998 pp. 188-224.
37. Robinson, W. First Aid for Underwater Finds. Archetype. London. 1998.
38. Rodziewicz, M. Mareotic Harbours. In C. Décobert (ed.) Alexandrie Médiévale 2, Etudes Alexandrines 8. IFAO. Cairo. 2002, pp. 1-22.
39. Ruppe, C. & Barstad, J. International Handbook of Underwater Archaeology. Plenum Publishers. New York. 2002.
40. Sidebotham, S. & Wendrich, W. (eds.) Berenike 1998: Preliminary Report of the 1998 Excavations at Berenike (Egyptian Red Sea Coast) and the Survey of the Eastern Desert. Leiden University Research School. Leiden. 2000.
41. Steffy, J. R. Wooden Ship Building and the Interpretation of Shipwrecks. College Texas A&M University Press. Texas. 1994.
42. Ward, C. Red Sea Treasure Ship. In G.F. Bass, (ed.) Beneath the Seven Seas. Thames & Hudson. London. 2005, pp. 186-191.
43. Ward, C. Sacred and secular: ancient Egyptian ships and boats. Archaeological Institute of America Monographs, No. 5. University of Pennsylvania Museum. Philadelphia. 2000.